الفصل الثالث عشر

بعد تلك الشهور الطويلة كلّها، كنت آمل أن يكون محصول والدي كافياً لتسديد رسومي المدرسية؛ كي أعود إلى المدرسة. لكنّ الديون التي تراكمت علينا من جرّاء المجاعة كانت كبيرة. ومع اقتراب موعد بدء الدراسة في مدرسة كاتشوكولو، لم يكن لدينا أيّ مال، ولا حتى لشراء بذور التبغ والسماد. لم يكن لدينا شيء نبيعه إذا لم نزرع التبغ، ما يعني أنّنا سنُفلِس فيما تبقّى من السنة. وفي واقع الأمر، فإنّ سنوات عدّة ستمر قبل أن نتمكّن من زراعة التبغ مجدّداً، وهو ما دفعنا إلى زراعة محاصيل يمكنها الاستغناء عن السماد، مع بيعها في السوق بسهولة، مثل: فول الصويا، والجوز، والفول. لكن، وعلى الرغم من رواج بيع مثل هذه المحاصيل الإضافية، فإن أسعارها لم تكن مرتفعة بما يكفي لجني مال وفير؛ مال يكفي لعودتي إلى المدرسة بطبيعة الحال.

كنت ووالدي نستمع إلى المذياع في ظهيرة أحد الأيام، عند العمل في الحقول، حين قرأ المذيع إعلاناً يروِّج لمدرسة محلية خاصة، وهذا نصّه: «**تعالوا إلى مدرسة كابهوكا الخاصة، لدينا مدرّسون أكفّاء، ونتائج باهرة في الامتحانات، ونظام تقسيط ميسر. لا تدعوا الوقت يفوتكم! تعالوا إلى كابهوكا!**».

كثيراً ما كانت تلك المدارس تبثّ إعلاناتها عبر المذياع، الأمر الذي كان يثير الحزن في نفسي بعدما آلَ بي الحال إلى الجلوس في البيت من غير فائدة. لكن، هذه المرّة، وجدت في ذلك الإعلان فرصة لأطرح السؤال الآتي، على الرغم من أنّني أعرف الإجابة مسبقاً:

ما رأيك يا أبتِ؟ ما رأيك في هذه المدرسة؟ ماذا بالنسبة إلى دراستي؟.

فأجاب: **حسناً، ما زلنا ننظر في الموضوع. آمل أن نتمكّن من إرجاعك إلى المدرسة عندما نسدّد ديوننا.**

أنا متأكّد أنّ تلك الأسئلة كانت تُدمي قلب والدي. لذا، كنت أتجنّب الخوض في نقاش، فأتقبّل إجابته مُواصِلاً العمل.

في شهر كانون الثاني ذاك، شاهدت أصدقائي كافة يعودون إلى المدرسة، كانوا يروون النكات، ويضحكون في الطريق المؤدي إلى كاتشوكولو. وكنت حين أُقابل غيلبرت والآخرين في السوق التجاري للعب الباوو، ويقول لي أحدهم شيئاً من قبيل: **إذن، متى سنراك في المدرسة مجدّداً يا ويليام؟**، أو يتفاخر بعلاماته الجيدة في الامتحانات؛ كنت لا أرد، أو أقول: **أُفضِّل عدم التحدث في هذا الموضوع رجاء.** فيتوقّف الجميع عن ذكر الموضوع مدّة من الزمن.

كنت كلّما ذهبت إلى السوق التجاري شاهدت كثيراً من الأولاد الذين تركوا المدرسة وهاموا على وجوههم. فبدلاً من أن يشغلوا أنفسهم بالزراعة، أو محاولة العودة إلى المدرسة، أخذوا يتسكّعون أمام متجر تشيبيكو بملابسهم الرثّة المتسخة، ويعملون بالغانيو طوال النهار لينفقوا ما جنوه في الشرب عند حلول الليل. وقد أصبح معظمهم مجرّد أشباح تتزاحم عند باب مركز أوفيسي للخمور، ويُخيَّل للرائي أنّهم أموات يتراقصون كالأحياء، بعد خروجهم مترنّحين من أوكار كاتشاسو.

لدينا مقولة في مالاوي تصف هؤلاء الأشخاص باللامبالاة. فهُمْ يعيشون حياتهم كما اتفق؛ يعتاشون على الغانيو، ولا يخططون للمستقبل. وفي واقع الأمر، فقد بدأت أقلق أن ينتهي بي المطاف على تلك الحال، وأن يفقد مشروع الطاحونة الهوائية بريقه يوماً ما، بحيث يتعذّر المحافظة عليه، وأن تذهب طموحاتي كلّها في مهبّ الريح، لينتهي بي المطاف بين صفوف الذرة. حقّاً، لقد أصبح من السهل علينا نسيان الأحلام.

حاربت تلك الأفكار السوداوية بالتردّد على المكتبة كلّ أسبوع، مع أنّني كنت غير موقِن بعودتي إلى المدرسة. كنت أواظب على الذهاب؛ لأُثري معلوماتي العامة، وأُحافظ على

إلهامـي. لذا، عمدت إلى قراءة الروايات الموجودة فـي المكتبة جميعها – يتحدث معظمها عن فيروس نقص المناعة المكتسبة، ومرض الإيدز –، إضافة إلى كتب الإملاء؛ لكي أُحسِّن مـن لغتي الإنجليزيـة الركيكة. وقد واظبت علـى استعارة كتب: **شـرح الفيزيـاء، واستخدام الطاقـة، والعلـوم الموحّـدة**. وأصابني الفضـول حديثاً حيال مضخّات الميـاه تحديداً، إلى جانب أنظمة التبريد، وطرائق صناعة الوقود البديل.

وعـودة على ذي بدء، فقد أصابت الطاحونة الهوائية نجاحاً كبيراً، لدرجة أنّني شعرت بقليـل من الضغط؛ إذ بـدأت أرى نفسي نجماً مشهوراً، نال حظّاً وافـراً من موسيقا الريغا، وتمكَّن من إصدار ألبوم حقَّق شهرة واسعة في الآفاق. ومع ذلك، فقد شعرت أنّ عليَّ تحقيق نجـاح من نوع آخر. فبـدأت أنكبّ على نصوص كتب المكتبة كلّ يـوم، محاوِلاً استلهام فكرة بديعة أُخرى. فقد كان المعجبون في الانتظار، أو هذا – في الأقل – ما كنت آمله.

وفـي واقع الأمر، فقد اقترح كثيرون – ممّن جـاؤوا لرؤية الطاحونة – أشياء مشابهة، من مثل: **تبدو كبرج إرسال**»، و« **ما دمت قادراً على صنع هذه الرياح الكهربائية، فبإمكانك صنع برج إرسال. إنّها تبدو مثله على أيّ حال.**

لقـد جعلني ذلك الأمـر فضولياً، وحفزني إلـى تعرّف كيفية عمل بـرج الإرسال. وبعد التفكير في الأمر مدّة من الزمن، لمعت في ذهني فكرة، فذهبت بها إلى بيت جيفري.

قلـت: **اعتـاد كثير مـن الناس القـول أن الطاحونة تبـدو كبرج إرسـال، فلنمنحهم ما يريدون إذن.**

قال: **ماذا تقصد؟**

أجبت: **لنبنِ محطة بثّ إذاعي.**

فـي ظهيرة ذلك اليوم، أخرجنا أجهزة المذياع المعطّلة من كيس القطع، وكان بعضها لا يحـوي غطاءً خارجيّـاً. أردت أولاً اختبار النظرية. وحدث أن ضربت عاصفة رعدية كبيرة المـكان ليلاً قبل ذلك بأسابيع عدّة، فدخلت غرفتي حاملاً المذياع. كنت أستمع إلى برنامج

يـوم الأحد لأفضـل عشرين أغنية حيـن انفجر البـرق مضيئاً السماء. عندمـا حدث ذلك، سمعت نبضة سَرَت في البرنامج، كأنّ البرق قسَّم الإشارة.

أخـذت مذياعاً آخـر ووجّهته إلى موجة مشوّشـة (فارغة)، ووجّهـت الأول إلى الموجة نفسها. عندئذٍ، توقّف المذياع الأول عن إصدار أيّ صوت؛ لا ضجيج، أو أيّ شيء آخر.

قـد تكون موجة أحـد الجهازين قد اخترقت الأخرى بفعل البـرق. ولكن، إذا كان ذلك صحيحاً، فمن المؤكّد أنّه يمكنني وضع صوتي على تلك الموجة.

كان أحـدُ الجهازين اللذين استخدمتهمـا مشغِّلَ شرائط شخصيّاً (ووكمان)، وقد ضمّ مذياعـاً أيضاً. أبقيت الجهاز الآخـر موجَّهاً على الموجة التي تحوي ضجيجاً، وقصرت عمل نظـام الووكمان علـى مشغِّل الشرائط. وقد لاحظـت حينها أنّ هنالك أسـلاكاً تصل مشغِّل الشرائـط بالسمّاعـات، فقمـت بفكّها عن هـذه الأخيرة، ثـمّ وصلتها بمكثّـف الجهاز. ولما كان المكثّـف يتحكّـم في الموجة، فقد يعني ذلك أنّ الموسيقـا الصادرة عن المشغِّل باتجاه السمّاعـات قد تُحمَل علـى موجة باتجاه المذياع الآخر. عندئـذٍ، وضعت شريط فرقة بلاك ميشيناريز في المشغِّل، قائلاً: **ها نحن أولاء.**

ضغطت على زرّ التشغيل، ويا للهول! فقد صدحت الموسيقا بوضوح من المذياع الآخر. وبـذا، أصبـح (الووكمان) يمثِّـل محطة البـثّ المخصوصة بي، مـا يعني أنّنـي إذا حصلت علـى خمسة أجهزة مذياع موجَّهة علـى الموجة نفسها، فجميعها ستبـثّ شريط فرقة بلاك ميشيناريز.

قلت: **حسناً يا سيد جيفري، كيف لي أن أفعل ذلك لصوتي؟**

وما هي إلّا لحظات حتى فككت الأسلاك عن المكثّف، ثمّ وصلتها بسمّاعة أذن منفصلة، ليصبـح لديّ لاقط صوت (ميكروفون). بعـد ذلك، ضغطت على زرّ التشغيل مجدّداً، وأخذت أتحدث عن طريق اللاقط، قائلاً: **واحد اثنان، واحد اثنان.** وفي هذه الأثناء، سمعت صوتي يصدح من الجهاز الآخر: **مساؤك سعيد يا مالاوي. هذا محدِّثكم ويليام كامكوامبا برفقة مساعده الأمين السيد جيفري. اسمحوا لنا بقطع برنامجكم المعتاد.**

بـدأت أنا وجيفري بعد ذلك بتجربة محطتنـا الإذاعية الصغيرة؛ إذ مشى جيفري إلى الخارج حاملاً المذياع، في حين بقيت أنا في غرفتي أُغنّي أغاني بيلي كاوندا المفضّلة لديه. وقد استطاع جيفري سماع صوتي بوضوح حتى في الخارج. لقد كنت أعمل بجدٍّ حقّاً.

وفجأة، صرخ جيفري عليَّ قائلاً: **أذناي تدميان. ولكن، تابع أرجوك! هذا رائع!.**

وقـد لاحظت أنّه كلّما ابتعـد عن غرفتي، أصبحت الإشارة أضعف، حتى اختفت بعد أن أصبـح علـى بُعْد ثلاث مئة قدم، الأمر الذي كان جيداً بالنسبـة إلى جيفري، على ما أعتقد؛ نظراً إلى صوتي النشاز.

قلت: **لو أنّ لدينا مضخّماً (للصوت) لتمكّنّا من البثّ مسافات أبعد.**

لكـنّ جيفري كان يخشى أن تعتقلنا السلطات بسبب العبث بموجاتها. فقد سبق أن قال كثير من الناس مثل تلك التفاهات بخصوص الطاحونة الهوائية أيضاً: **عليك أن تحذر، وإلّا اعتقلتك شركة توليد الطاقة الوطنية.**

لو أنّ أسلافنا خافوا من الاعتقال لدى إجرائهم تجارب أفضت إلى اختراعات عظيمة، مثل: المذياع، والمولِّدات، والطائرات، لما تمكّنّا من التمتّع بها في يومنا هذا.

لذا، كنت أُردِّد دائماً: **فليأتوا لاعتقالي، سيكون ذلك شرفاً لي.**

وسرعـان ما أصبحـت أُحاول تجربة كلّ فكـرة تخطر على بالي. وبـذا، لم تخلُ لحظة فـي العام اللاحق من تخطيط واستنباط خطة جديـدة. ومع أنّ الطاحونة الهوائية والمذياع أصابا نجاحاً باهراً، فإن مصير بعض التجارب الأخرى كان خلاف ذلك.

كان أكثر مشروع تحمّست لعمله هو مضخّة المياه؛ الذي كان جزءاً من فكرتي الرئيسة مُذْ رأيت الطاحونة الهوائية في الكتاب. ومع أنّ المضخّة التي تعمل بطاقة الطاحونة الهوائية ستأتـي في وقت لاحـق، فإنني بدأت أعمل علـى نموذج مضخّة لتجربة مبـدأ عملها لا أكثر. لقـد صنعتها وَفقـاً لصورة من كتاب **شـرح الفيزيـاء**، تمثِّل مضخّة دافعـة تستخدم مكبساً، ومجموعـة من الصمامات؛ لدفع المياه عبر مخرج. وقد ضرب الكتاب أمثلة على ذلك، مثل بخّاخـات المياه المخصوصـة بزجاج السيارات الأمامي، وهي شـيء لم أستخدمه من قبل، إضافة إلى مضخّة يدوية تُستخدَم في الدرّاجات الهوائية، وهي شيء كنت أعرفه جيداً.

كان فـي بيتنا بئر ضحلة نستخرج منها المياه لأغراض التنظيف والاستحمام، وقد بلغ عمقهـا أربعين قدماً. لذا، كنت أولاً بحاجة إلـى أنبوب طويل يصل إلى القعر. فتذكّرت أنّني رأيـت مـرّة أنابيب في ساحة الخردة كانـت تُستخدَم قبلاً في الـريّ، وكانت لا تزال مدفونة تحـت الأرض. لذا، تناولـت معولي، وخرجت ذا صباح لأحفـر وأستخرجها، وهو ما استغرق منّي يومين كاملين.

كانـت الأنابيـب مناسبـة تمامـاً؛ فـالأول كان لدائنيـاً (بلاستيكيّـاً) عريضـاً يمكنني استخدامه ماسورةً خارجيةً. ولمّا وضعتها في البئر أحسست أنّها لامست القاع. أمّا الأنبوب الثاني فكان معدنيّاً رفيعاً، ما جعله مثاليّاً لاستخدامه مكبساً. وكان السيد غودستين قد لحم حلقة في طرف الأنبوب المعدني، وأبقى الفتحة الرئيسة مفتوحة. ثمّ ثبَّت حول الحلقة قطعة مطاطيـة غليظة مأخوذة من درّاجة هوائية، بوصفها صماماً للإدخال، أو سدادة. بعد ذلك، طلبـت إليـه أن يثني الأنبوب المعدني من أعلى بزاوية قدرهـا تسعون درجة ليتشكَّل مقبض. وعنـد تحريـك المقبض المعدني إلى أعلـى وأسفل، يتكوَّن مـا يشبه الفـراغ داخل الأنبوب البلاستيكـي. أمّـا عند رفعه إلى أعلى فيُسحَب الماء إلى الأنبوب البلاستيكي، في حين تفتح السـدادة المطاطية عنـد إعادته إلى أسفل، فيدفع الضغطُ الماءَ نحـو السطح. وبذا، ينتقل الماء إلى أعلى بوساطة الأنبوب البلاستيكي ليعبر فتحة كنت قد أذبتها على الجانب.

لكنّنـي واجهـت مشكلة أُخـرى تمثَّلت في احتكاك السـدادة المطاطية احتـكاكاً زائداً بالأنبوب البلاستيكي. فما إن بدأت شقيقاتي باستخدام المضخّة، إلى جانب نسوة من قرية مجاورة، حتى واجهن صعوبة في استعمالها.

قالت والدتي: **لا أستطيع تشغيل هذا الشيء. يبدو أنّها عالقة.**

حاولـت دهن الأنبـوب ببعض الشحمة، لكـنّ الماء البارد تسبَّب فـي جعلها (الشحمة) غليظة كالهلام، فلم تتوزّع بالتساوي. وسرعان ما تركت الأمر برمّته.

لـم تصـب المضخّة نجاحاً كبيراً، لكنّ فشلي في محاولـة سحب الماء لا يُقارَن به لدى محاولتي إنتاج الغاز الحيوي.

فقد ذكرت فيما مضى أنّ إزالة الغابات في مالاوي جعل توفير الحطب لأغراض الطهي أمـراً صعب المنال، ولم يـزد جمع الحطب هذه البقعة المدمّـرة إلّا خبالاً. وقد اعتدنا حين يكـون محصول الذرة وافـراً، تجميع كميات كافية من العرانيـس الجافة لاستخدامها حطباً مدّة أربعة أشهر. ولكن، ما إن ننتهي من ذلك حتى يبدأ البحث عن الحطب مجدّداً.

كانـت والدتـي وشقيقاتي يسرن يوميّاً كيلومتـرات عدّة لبلوغ غابة صغيـرة من أشجار اليوكاليبتوس، تقع قرب كاتشوكولو؛ بغية تقطيع حُزم من الأشجار الصغيرة، وهو عمل كان يستغـرق ثـلاث ساعات في الأقل. كانت معظم تلك الأشجـار لا تزال حية خضراء. لذا، كان علينـا تركهـا جانباً خمسة أيام تقريباً حتـى تجف. كانت تلك المدّة طويلـة في الواقع. لذا، كنّـا نحرقها علـى أيّ حال، الأمر الذي كان يتسبَّب في انبعـاث دخان أبيض كثيف من نوافذ المطبـخ. وذات مـرّة، نظرت إلى الداخل، فرأيت والدتـي المسكينة تحرِّك طبقاً من السيما وهي تفـرك عينيها المقفلتين اللتين انهمرت منهما الدموع علـى وجنتيها. كانت النساء في عائلتنا يُصَبْنَ بحالة سيئة من السعال كلّ عام.

تعانـي كلّ امـرأة مالاوية هذا العـبء وتبعاته. وقـد أيقنت أنّ رحـلات إيجاد الحطب تلـك ستستغـرق – بعد حيـن – وقتاً طويلاً، لدرجـة أنّنا لن نحصل علـى أيٍّ من الوجبات. والأدهـى من ذلك أنّ وضع تلك البقعة سيزداد سـوءاً، مُخلِّفاً آثاراً سلبية على صورة جفاف وفياضانـات. لذا، يتعيّن على أحد ما التدخّل لإنقاذ نسائنـا وأشجارنا. فقلت لنفسي: **لماذا لا أكون أنـا؟. وكانت بعض النسوة قد سألنني بعدما بنيت الطاحونـة الهوائية: هل تُنتِج الرياح الكهربائية طاقة تكفي حاجة الأمهات من الطهي؟.**

ولسوء الطالع، لم تكن تلك الطاقة كافية قطّ.

لم تكـن طاحونتي الهوائية تولِّد فولتية تكفي لتشغيل موقد مناسب. لذا، بدأت بالبحث عـن أفكار أُخـرى. وكنت قد أجريـت تجارب جديدة علـى الأسلاك والبطاريـات قبل ذلك بأسابيـع. حينها أخـذت قطعة غليظة من العشب المستخدَم في بنـاء السقوف والسياج، ثمّ لففتهـا بسلك نحـو عشرين مرّة، ثمّ وصلت طرفي السلك ببطاريـة فولتيتها اثنا عشر فولتاً،

فأحسست بحرارة. وسرعان ما توهّج السلك، وتحوّل إلى اللون الأحمر بفعل الحرارة، فاشتعل العشب في يدي. كانت تلك مجرّد تجربة طفولية بسيطة، لكنّها أعطتني الفكرة الآتية.

قلت لنفسي: **حسناً، ربّما ساعدني ذلك على غلي الماء.** لكنّني – في واقع الأمر – لم أتمكّن من وضع قدر الماء المعدنية على بكرة من أسلاك؛ لأنّها ستعمل بوصفها موصلاً فقط. أمّا إذا استخدمت قدراً فخارية فإنّها ستسحق البكرة. لذا، صمَّمت بكرة على شكل صولجان سحري بمقبض بلاستيكي مصنوع من قلم حبر جاف مفرغ. وكنت قد رأيت تلك البكرات ذات المقابض سابقاً – في السوق التجاري – لكنّها كانت تُزوَّد بالطاقة عن طريق شركة التوليد الوطنية بدل البطاريات. فقمت بوصل سلك ببطارية فولتيتها اثنا عشر، ثمّ وصلته بالبكرة تحت المقبض. ولمّا غمرت البكرة بالماء بدأ يغلي خلال خمس دقائق.

كان ذلك الأمر مجرّد تجربة بسيطة جدّاً. لذا، تعيّن عليَّ التوسّع. أذكر أنّ كتاب **العلوم الموحّدة** ضمّ قسماً صغيراً عن الوقود البديل، مثل: الطاقة الشمسية، والطاقة المائية، وكنت قد درست عن كليهما سابقاً. لكنّه أشار أيضاً إلى شيء يُدعى **الغاز الحيوي** الذي يُنتَج عن طريق تحويل فضلات الحيوانات إلى وقود سائل يُستخدَم للطهي فيما بعدُ؛ وذلك بعدَ دفن فضلات الحيوانات في حفرة مدّة شهر لكي تسخن، ثمّ تصريف الغاز الناتج عن طريق صمام.

قلت لنفسي: **لست في حاجة إلى حفرة، ولست فيحاجة إلى الانتظار تلك المدة كلّها أيضاً.**

لذا، فقد وضعْتُ خطة خاصة بي؛ إذ تسلّلت إلى مطبخ والدتي، ثمّ خطفت قدراً فخارية مدوّرة كبيرة تستخدمها لطهي الفول. وكلّ ما أحتاج إليه الآن هو بعض من **المادة العضوية**، ولم يكن ذلك بالأمر الصعب. فقد كانت عمّتي كريسي تربّي عنزتين في حظيرة خشبية خلف منزلها. وكانت الأرضية مغطّاة بفضلات الماعز التي تشبه كُرات البلور المدوّرة.

وبعد أن أخذت كيس سكر فارغاً، وتأكّدت أن أحداً لا يراني، تسلَّقت السياج، ثمّ دخلت الحظيرة. حينئذٍ، تراجعت العنزتان نحو الزاوية، ونظرتا إليَّ باستغراب، لكنّني تابعت العمل. فملأت الكيس حتى فاض، ثمّ عدت إلى المطبخ.

كانت والدتي تعمل في الحديقة، الأمر الذي منحني وقتاً ومساحة كافية للعمل. فوضعت الفضلات في القدر الفخارية، ثمّ ملأت نصفها بالماء، حتى أصبحت كرات الفضلات البنية تسبح داخلها. بعدئذٍ، غطّيت الفوهة بأكياس الجامبو البلاستيكية، ثمّ ربطتها بحبل لتثبيتها بإحكام. ولمّا فرغت من ذلك صنعت صماماً بقطع الجزء العلوي من هوائي مذياع؛ لأحصل على أنبوب مجوّف، ثمّ غرزته في منتصف الغطاء البلاستيكي، ثمّ أقفلت فوهة الهوائي بقصبة.

كانت النار التي أشعلتها والدتي لتحضير الإفطار ما تزال ساخنة. لذا، أضفت إليها حفنة من تبن الذرة، ثمّ نفخت عليها حتى اشتعلت، ثمّ ركَزت عليها القدر، مُنتظِراً حدوث الأمر العظيم.

وبعد نحو ربع ساعة، سمعت قرقعة داخل القدر، وبدأ الماء يغلي، ثمّ انتفخ الغطاء البلاستيكي وأخذ يتراقص من جرّاء البخار، لكنّ الحبل كان ثابتاً. بدأ قلبي يخفق بشدّة، ثمّ انتظرت ثواني قبل أن أبدأ الاختبار الأخير. وفجأة، سمعت صوتاً قادماً من خلفي؛ إنّها والدتي.

صرخت قائلة: **ما هذه الرائحة؟**

أجبت: **غاز حيوي، إنّه...**

قالت: **إنّها فظيعة!.**

في تلك الأثناء، كان الغطاء البلاستيكي يقرقع بشدّة ويكاد ينفجر. فأدركت أنّه يتعيّن عليَّ التصرف بسرعة؛ إذ كان الوقت قد حان لإزالة القصبة، وبدء عملية الإشعال.

ذهبت بسرعة لأزيل القصبة. وحين فعلت ذلك، خرج عمود بخار رمادي من الفوهة. كانت والدتي محقّة؛ فالرائحة كانت نتنة. كنت قبلاً قد جهّزت قطعة طويلة من العشب، فتناولتها ووضعتها في النار، فاشتعلت. ثمّ صرخت قائلاً: **تراجعي! قد يكون هذا خطراً.**

قالت: **ماذا؟**

وقفت، ثمّ ركضت نحو الباب دافعاً والدتي جانباً. وبعد أن أصبح نصف جسدي خلف الباب، مددت ذراعي مقرِّباً الشعلة شيئاً فشيئاً، ثمّ قلت: **ها نحن أولاء.**

وقبل أن تلامس النارُ الغازَ المتصاعد، أغلقت عينيّ خشية الوميض. وما هي إلّا لحظات حتى حدثت فرقعة صغيرة سرعان ما تلاشت. وحين فتحت عينيّ، كان كلّ ما رأيته هو قطعة عشب تقطر ماءً آسناً، فجنّ جنون والدتي، وأخذت تصرخ: **انظر ماذا فعلت. لقد أفسدت أفضل قدر لديّ! لا أُصدِّق أنّك تغلي فضلات الماعز. سأخبر والدك بالأمر.**

حاولت أن أشرح لها أنّ ما فعلته كان من أجلها، لكنّني أعتقد أنّ الوقت لم يكن مناسباً.

في أواخر عام 2003م، عندما كنت أقرأ كتبي تحت شجرة المانجو خاصتنا وأُفكِّر في تجاربي، ذهبت والدتي لزيارة أهلها في ساليما، ومكثت هناك أسبوعين. تقع ساليما بمحاذاة البحيرة، وهي تتمتّع بمناخ حارّ؛ ما يفسِّر وجود أعداد كثيرة من البعوض فيها، حتى يُخيَّل للرائي أنّها طيور صغيرة متوحشة. وحين عادت والدتي إلى البيت، أُصيبت بحمّى ودوار، ثمّ بدأ كلّ جزء في جسدها يرتعش كأنّها وُضِعت في حوض مليء بالثلج. كنّا نعرف أنّ تلك هي أعراض الملاريا.

يصاب جميع سكان الدول الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى بالملاريا في مرحلة ما. ويتعرّض معظم الأشخاص للمرض في مرحلة الطفولة. وفي حال لم يحط الواحد منهم سريره بشبكة (ناموسية) مناسبة لتجنّب قرصات البعوض، فإنّه يعرِّض نفسه للإصابة بالعدوى كلّ عام، إلى أن يصبح كهلاً يغلب على مُحَيّاه اللون الرمادي. وقد شكَّلت الملاريا معضلة لنا جميعاً؛ نظراً إلى خلوّ بيتنا من أيّ شباك. وإذا كنّا محظوظين باكتشاف المرض قبل تفاقمه، وتناول الأدوية التي تزوِّدنا بها العيادة، فسنشعر بتحسُّن خلال أسبوع أو اثنين. ولكن، توجد أنواع أُخرى من الفيروسات توصَف بأنّها أكثر شراسة وخطراً من غيرها؛ فهي تهاجم الدماغ مباشرة، ويصعب علاجها. ولسوء الطالع، فإنّ الملاريا تقتل أكثر من مليون شخص في إفريقية كلّ عام، معظمهم من الأطفال.

بدت الأعراض التي تعانيها والدتي عادية. لذا، وضعناها على السرير، وخططنا لجلب أدوية لها في اليوم اللاحق. لكنّ الحمّى أخذت تشتد مع مرور الوقت، شأنها في ذلك شأن

شقيقتـي ميليـس. ومع بزوغ شمس الصبـاح، كانت والدتي تتقيأ وترتعش أكثر من ذي قبل، وأصبحت لا تقوى على الكلام. ثمّ أخذت تتنفّس بصعوبة، لدرجة أنّني تمكّنت من سماع ذلك في أثناء وجودي بغرفتي. ومع حلول الظهيرة، فقدت الإحساس بساقيها.

ولمّا كانت قريتنا تفتقر إلى وجود سيارة إسعاف، فقد حمل والدي والدتي على درّاجته الهوائيـة، وطلب إليها التمسّـك، ثمّ توجّه بها صوب العيادة الواقعـة قرب المركز التجاري. وحالمـا ألقت الممرضات نظرة عليها، طلبن إلى والدي أن يأخذها إلى المستشفى الإنجيلي في متونثاما على وجه السرعة. وسرعان ما لوَّح والدي لشاحنة فتوقّفت، ثمّ وضع والدتي في الخلف.

سأل الطبيب في غرفة الانتظار بمتونثاما: **ما الأعراض؟**

أجابت والدتي: **أعجز عن السير. أشعر كأنّ ساقيّ أصابهما الشلل.**

بعـد الفحص وثبوت إصابتها بالملاريا، أعطاها الأطباء حقنتين في ساقها. ولكن، لم يكن هنالك أسرّة شاغرة في المستشفى. لذا، فقد اضطرت إلى العودة إلى البيت.

بـدأت والدتي تفقـد الوعي بعد ذلك بيومين. وفي صباح اليوم الآتي، تمكّنّا من إيقافها علـى قدميهـا، ثمّ سرنـا بها نحو الخارج. وما هـي إلّا لحظات حتى وضعناهـا على الدرّاجة الهوائية، وكنّا حريصين على ألّا تقع عنها.

قلت: **عليك التشبّث يا أمّاه.** ولكن، من دون فائدة.

وفـي أثناء دفعنا إيّاها أسفل الطريق، ظلّ جسدها الضعيف ينهار ككيس من الفول؛ إذ اندفع رأسها نحو الوراء، فأمسكت بشعرها؛ لأسنده.

لا تقلقي، حاولي أن تتمالكي نفسك إلى أن نصل الطريق. سنأخذك إلى المستشفى وسيعالجونك لتصبحي على ما يرام، قال والدي ذلك مراراً والخوف باد في نبرة صوته.

كان موقـف الشاحنـات يمثِّل حيِّـزاً صغيراً تحت بعض أشجار المانجو قـرب العيادة والمدرسـة الابتدائية. ومـا إن وصلنا إلى هناك حتى أنزلنا والدتـي عن الدرّاجة بلطف، ثمّ

مددناهـا على العشب. وبعد دقائق معدودة جاءت شاحنة تهـدر من السوق التجاري، وكانت متوجّهة صوب كاسونغو. لوَّح لها والدي كي تقف.

صرخ قائلاً: **افسحوا مجالاً! زوجتي مريضة!**.

كان هنالك نحو عشرة أشخاص يحشرون نفسهم في الجزء الخلفي من الشاحنة، إلى جانـب صناديق الكـوكا كولا الفارغة وبعض أكياس الذرة. وحيـن شاهدوا حال والدتي، قفز بعضهـم من مكانه مُفسِحاً المجال. صـرخ والدي مخاطباً السائق: **إنّهـا مصابة بالملاريا، خذنا إلى متونثاما!**.

وضعناهـا في صندوق الشاحنـة، وأسندنا ظهرهـا إلى المقصورة. جلسـ والدي إلى جانبها وثبَّتها، واضعاً رأسها على كتفه، ثمّ قال:

اعتنِ بشقيقاتك يا ويليام، وأخبر شقيقتي كريسي والبقية عن مكاننا. وسرعان ما انطلقت الشاحنة.

كان الطريـق إلـى متونثاما مليئاً بالحفر والمطبات، الأمر الـذي أدى إلى رجّ جسدها، وزحزحة عظامها عن مكانها.

وصلـت الشاحنـة إلـى المستشفى بعد ربع ساعـة، فحمل والدي والدتـي بذراعيه عبر الباب، وهو يصرخ قائلاً: **نحتاج إلى طبيب حالاً.**

أُدخِلـت والدتـي في إحدى الغـرف بسرعة، ثمّ أُعطِيـت الدواء عبر قسطـرة بالوريد؛ لتقاوم المرض.

قال الطبيب: **الوضع ليس مُبشِّراً. يبدو أنّه وصل إلى الدماغ.**

كانت الغرفة مطليـة باللون الوردي، ومضاءة من شركة التوليد الوطنية. وقد عُلِّق على الجـدران كثير من الصور الكبيرة التـي تُظهِر أناساً يعانون أمراضـاً مختلفة، مثل: الإيدز، والسـلّ، والسيلان. كانت هنالك امرأة مستلقية علـى السرير المجاور لسرير والدتي. كانت من تشاماما، وظلّت تتقيأ داخل كيس.

فـي ظهيرة ذلك اليوم، وصلت العمّـة كريسي وماري، زوجة عمي سقـراط، إلى بيتنا، وقضيتـا الليلة عندنا تتلـوان الصلوات. عاد والدي إلى البيت أيضـاً، وحاول بيع بعض الذرة وفول الصويا لتأمين نفقات العلاج. كان هادئاً، وظلّ يذرع الباحة كمَنْ ينتظر شيئاً.

سألت ميليس: **هل ستكون أمّي على ما يرام يا أبي؟**

أجاب: **إنّها مريضة جدّاً. لتصلّي من أجل والدتك.**

تمكّن والدي في صباح اليوم اللاحق من بيع بضعة كيلوجرامات من الحبوب في السوق التجـاري، ثمّ قفـل عائداً إلى المستشفى. تطوّعت للبقاء في البيـت، ورعاية شقيقاتي: كنت أيضـاً أخشى رؤيـة والدتي على تلك الحال. وحين امتلكت الشجاعـة لفعل ذلك صباح اليوم التالي، سرعان ما ندمت على ذلك.

بـدت بشرة والدتي السمراء مخطوفـة اللون مقارنة بالأغطية البيضاء، وكانت شفتاها جافتيـن متشققتيـن. كان صدرها يعلو ويهبط بسبب ضيق التنفس كزورق ورقي يتلاطم بين الأمواج. كانت عيناها مقفلتين، لكنّ مقلتيها تتراقصان في الداخل.

أخبرتني والدتي لاحقاً أنّها كانت قد استسلمت للموت عندما غرقت في الظلمات. كانت قـد تخلَّـت عن صمودها، وتنتظر يسوع ليأتي ويأخذها. لكـنّ شيئاً كان يمنعها من المغادرة. كانـت تشعـر بجسدها النحيل يغوص فـي السرير، ثمّ يرتفع مجدّداً فجـأة. وفي أثناء ذلك، كانت تفتح عينيها، فتشاهد أناساً تعرفهم يقفون حولها. كان الظلام يحلّ فجأة لتعاود الكَرَّة مجدّداً. وقد ذكَّرتها رؤية أولئك الناس بأطفالها؛ إذ حلمت في مرحلة ما من العتمة بشقيقتي تياميكي الصغيرة والضعيفة. كانت في الحلم وحدها وخائفة؛ لأنّ والدتها توفيت. وقد دفعها التفكير في ابنتها إلى محاولة التخلص من الظلام للأبد. لقد كان صراعاً مريراً يفسِّر سبب تلوّي عيني والدتي كالنمل الأبيض. وحين تمكَّنت من تحرير نفسها وفتح عينيها، رأتني واقفاً إلى جانبها. فصرخت قائلة: **تياميكي! أين تياميكي؟ أين طفلتي؟**.

قفزت إلى الخلف كمَنْ رأى ثعباناً للتو. كانت عيناها متسعتين، وتنبضان بالخوف.

تياميكي!.

قالت عمّتي: **تياميكي في البيت، سترينها عمّا قريب، لا تقلقي.**

بدأت والدتي تنسل عائدة إلى الظلام ببطء كأنّها تتفرّغ من الهواء. وكلّما كانت تصحو من الغيبوبة، كانت تنادي اسم شقيقتي مجدّداً. إنّ رؤية المرء والدته على تلك الحال يجعل النفس تعتصر ألماً وحزناً؛ حتى يُخيَّل إليه أنّ السماء تكاد تنفطر من فوقه. كنت موقناً أنّها ستموت، وما جعل الأمر أشد وطأة هو مراقبتي إيّاها في أثناء ذلك. ولكن، بعد أيام عدّة، زالت الحمى بما يشبه المعجزة. لم أكن قد دعوت الله هكذا من قبل.

بعد وقت قصير من عودة والدتي إلى البيت، أخبرني غيلبرت أنّ والده ليس على ما يرام. وكان الزعيم قد عاش خائفاً على سلامته مُذْ تعرّض للضرب على أيدي بلطجية الرئيس، وتدهورت صحته بصورة ملحوظة أيضاً.

وكلّما مررت ببيته كنت أراه هادئاً ضعيفاً، وقد فَقَدَ كثيراً من وزنه حديثاً. وفي حال كانت الشمس دافئة، كان يعمد إلى النوم على الأريكة، أو السير وحيداً في الحقول. لم أكن أجرؤ على التحدث إليه؛ لأنّه الزعيم، لم أكن مؤهّلاً لذلك بحكم سنّي.

وبعد أشهر عدّة، ذهبت لزيارة جيفري في مكان عمله بتشيبومبا، فشاهدت بعض النسوة في الطريق، وقد نقلن إلى المارّين خبراً محزناً. قلن والدموع تترقرق في أعينهنّ: **لقد توفي الزعيم ويمبي يا إخوتنا.**

صعدت أنا وجيفري على درّاجتي، محاولين الوصول إلى البيت بأقصى سرعة، لكنّ الإطار انفجر، فاضطررنا إلى السير والدفع. وفي الوقت الذي كنا فيه نصارع الدرّاجة، كانت التحضيرات للجنازة قد بدأت؛ إذ مرّت بنا أعداد كبيرة من السيارات والشاحنات. وكانت سيارات الشحن مليئة بالدجاج والمعز وأكياس دقيق كبيرة؛ بغية إطعام الزائرين الذين بدأوا يتوافدون لتكريم الزعيم.

شاركت عشرات من نساء القرية أيضاً في إعداد الطعام وطهيه للمعزّين. وقد التزم المارّون كافة الصمت. ولم تُسمَع أصوات أجهزة المذياع. وما إن هدأت حركة السير حتى سُمِع صوت قرع طبل قوي؛ صوت لم أسمع مثله من قبل، كان يمثِّل نغمة حزينة، كمطرقة تطرق أبواب السماء؛ لقد مات زعيم.

حيـن وصلنـا، كان هناك مئات مـن الأشخاص المتجمّعين حول بيـت غيلبرت. رأيت والديّ وشقيقاتي، وأعمامي، وعمّاتي، إلى جانب تجار السوق كافة. وكان هناك بعض النسوة يركضن جيئةً وذهاباً وهنّ يحملن دلاء الماء على رؤوسهنّ. في حين انحنت أُخريات نحو النار وقد لفّهنّ دخان الحطب، والعرق يتصبّب منهنّ، ثمّ أخذن يحرِّكن قدوراً ضخمة من السيما. وفي هذه الأثناء، وقفت جوقة كنسية تحت أشجار اليوكاليبتوس تغني بعذوبة: (**الأرض ليست موطني**)، في حين خرج رتل من الناس عبر الباب الأمامي صارخين منتحبين:

لقد تركَنا الملكُ. ماذا سنفعل من بعده؟

جلسـت أنا وجيفري تحت شجـرة ننتظر. وسرعان ما جاء شخص وأخبرنا أنّ غيلبرت مستعـد لرؤيتنا. كان جالساً تحت الأشجار في الجانـب الآخر من البيت، وقد بدا أنّه أصيب بصدمة، مع أنّه حاول التماسك لأجل والدته. لقد غمرتني رؤيته بذلك الحال حزناً.

قلـت: **لقـد سمعـت ما حـدث لوالـدك. تعـرف أنّنـي أسانـدك فـي مثل هـذه الأوقات العصيبة. توكّل على الله.** لم أدر ما أقول غير ذلك. لذا، بقيت صامتاً بعدما واسيت صديقي.

أُقيمـت مراسـم الجنازة في باحـة المدرسـة الابتدائية تحـت أشجـار اليوكاليبتوس الكبيـرة. وفي هذه الأثناء، بدأ مطر خفيف بالهطـل، ثمّ نصب شخص ما سُرادق لاستقبال عائـلات الزعمـاء، ومندوبيهم، والمسؤولين الذين جاؤوا مـن كلّ حدب وصوب. وفي الوقت الـذي تجمّعوا فيـه تحت عريشة، ربضـ مئات القرويين فـي الخارج ينوحـون ويبكون تحت المطـر. كان جثمان الزعيـم مسجّى في الأمام داخل تابوت خشبـي مغطّى بالأزهار البرية. وقد حضـر المراسم ممثّلون عن جميع الكنائس والمساجد في ويمبي وما حولها. ثمّ تناوبت جوقاتهم على الوقوف عند الصندوق الخشبي، منشدين أغاني بلغة تشيتشيوا. وحين فرغوا من الترانيم، لم يكسر حاجز الصمت إلّا قرع الطبل.

كانت الترانيم الجنائزية بطيئة رزينة، ثمّ ارتفع نسقها ونبرتها. بعد ذلك، مشى راقصو الغولـي والمكولو على وقع إيقاع سريع غاضب. فقد تزاحم نحو خمسين منهم حول التابوت، وارتـدى كلّ واحد قناعاً أسود علـى شكل رأس بقرة، مع خراطيم طويلـة جدّاً، وقرون سود، وعيـون مستديرة جاحظة. مضـت أيام على وجود هؤلاء الراقصيـن الصوفيين هنا، وكانوا

قـد نصبوا خيامهم خلف بيـت غيلبرت، وربضوا حول نيرانهم دون أن يكشفوا عن وجوههم. وقـد انسلخ بعضهم الآن عن المجموعة، واجتاحت أجسادهم نوبات في أثناء الرقص. كانوا يتقرفصـون بانسجام، راكلين بأرجلهم، وماسحين التربة الحمراء بأيديهم، كأنّهم يخبرون الأرض أنّها على وشك احتضان الزعيم.

تحـرّك الموكب الجنائـزي بعد انتهـاء الرقص صـوب المقبرة القريبة مـن الكنيسة الكاثوليكيـة. وقد حُفِر قبـر الزعيم بالطريقة نفسها التي حُفِر بهـا قبر عمّي جون؛ أي عمل غرفـة صغيـرة داخل قاع الحفرة. تُلِيـت الصلوات، ووضعت الأكاليل علـى التابوت. ثمّ ظهر السيـد نغواتا ساعي الزعيم بزي الشرطة القاتـم، وأطلق بعض العيارات النارية في الهواء. ومـا هي إلّا لحظات حتـى شاهدنا زعيمنا وهـو يسجّى في الأرض، والوجـوه الحزينة تقطر بالدموع، والآذان تُصَمّ بطنين الضجيج.

لـم تكد قريتنا تلملم أحزانها بعد وفاة الزعيم حتـى أحاقت بالبلاد مجاعة أُخرى في وقـت لاحق مـن العام نفسه. وقد حلّت المجاعة على الرغم من الأمل الجديد الذي انتظرناه طويـلاً؛ ففي شهر أيار من عـام 2004م، تنحّى الرئيس المنبوذ مولـوزي عن الحكم أخيراً، مُفسِحـاً المجـال لإجراء انتخابات جديدة. وقـد اختار المالاويون بينغـو وا موذاريكا رئيساً جديـداً للبـلاد. كان موذاريـكا رجلاً يتحلّى باحتـرام الجميع، وكان قد حصـل على شهادة فـي الاقتصاد من الولايات المتحدة، وشغل منصباً رفيعـاً في الأمم المتحدة. تعهّد الرئيس الجديـد بإحداث تغييـر سريع في مـالاوي، ووضع على سلّـم أولوياته مساعـدة المُزارِعين أمثالنـا. ثـمّ بدأت الحكومة فـي موسم الزراعة اللاحـق بدعم السماد؛ ما يعنـي أنّه أصبح بإمكان عائلتنا تحمُّل كلفة شرائه لأول مرة منذ ثلاثة أعوام.

خَفَّضـت كوبونـاتُ السماد السعرَ ليصبح تسـع مئة وخمسين كواتشا بعـد أن كان يُباع بأربعـة آلاف، حيـث كان نصيـب كلّ عائلة أربعة كوبونات. لكن ذلـك الإجراء لم يكن فاعلاً بسبب ثقافة الفساد المتأصِّلة سلفاً. فبدلاً من توزيع الكوبونات على المُزارِعين مباشرة، قام كثير من الزعماء المحليين بكنزها وبيعها لمَنْ يملك المال.

فـي شهـر كانون الأول من عام 2005م، تلقَّت كلّ عائلة تعمـل بالزراعة أربعة كوبونات. فقمت أنا ووالدي بتوزيع مهمة جرّ الأكياس فيما بيننا؛ بأن أخذ كلّ منّا كوبونين، ووقف طوال النهـار في طابور شركة إدمارك في ويمبي، حيث تبيـع الحكومة الذرة والسماد. أخذ والدي أكياسـه وغـادر. ولكن، عندما حـان دوري، كان المسؤولـون الفاسدون قـد أعطوا معظمها لأصدقائهم، ثمّ أقفلوا الشركة مبكّراً، فبدأ المُزارِعون المصطفون يُحدِثون شغباً.

أسرعت إلى النافذة لأرى ما يحدث في الداخل. وما إن وضعت وجهي على الزجاج حتى أحسسـت بألـم حادّ في ظهـري. كان أحد بلطجية الحكومة الذين يعملـون على حفظ الأمن واقفاً خلفي ويضربني بخرطوم.

صـرخ قائـلا: **اخرج من هنـا أيّها القـرد الصغيـر!**، وراح يلوِّح بخرطومـه غاضباً، ثمّ ضربنـي مجـدّداً على ذراعيّ، وأتبعهـا بضربات عدّة على ظهري. أحسسـت بألم يسري في عمـودي الفقري، فهربـت بأسرع ما يمكن. وفي هـذه الأثناء، حُشِر رجـال آخرون كانوا في الانتظـار إلى جدار، وجُلِـدوا من دون شفقة. وما إن أصبحت علـى مسافة آمنة حتى شعرت بوجهي يحمرّ من شدّة الغضب. وقد هممت أن أقتله، لكنّه كان قويّاً جدّاً. لذا، لم يكن هنالك أيّ أمل في ذلك.

صرخت قائلاً: **أنت محظوظ لأنّ والدي غادر آنفاً!**.

تمكّنّـا بعد ذلك مـن الحصول على كيسين آخرين من السماد، فبدأنا نحضِّر للزراعة. هطلـت الأمطار كالمعتاد في البداية، فزرعنا البذور بـأن مشينا عبر صفوف الذرة حاملين السماد، لنضع غَرْفة منه في حفرة بجانب مكان البذور، ونغطّيها مجدّداً بالتربة.

كانت الفسائل قد بدأت تنمو مطلع شهر كانون الثاني، حتى وصلت إلى الكاحل بأوراقها الصغيـرة، فرحة بتغذّيها بالمطر والسماد اللذيذين. ولكـن، ما إن وصل ارتفاعها إلى ركبة والدي حتى توقّف هطل الأمطار تماماً. كانت الشمس تشرق كلّ صباح بغضب لتؤذي الفسائل المسكينة، وتودي بها إلى الذبول والانحناء. وسرعان ما أصبحت أوراقها جافة وهشّة، لدرجة أنّها كانت تحرق وتستحيل رماداً إذا قرّبنا منها عود ثقاب مشتعلاً.

قال والدي: **سنواجه مشكلة في العام القادم.**

فرددت قائلاً: **لا أعرف إذا كان بإمكاني تحمّل عام آخر (من الجفاف).**

هطل المطر مرّات أُخرى محدودة في شهر شباط؛ ما ساعد على تشكّل اللب فحسب. ولكن، ما إن جاء موسم الدوي حتى كانت معظم الثمار غير مكتملة النمو ومشوّهة. سيكون موسم الحصاد مروِّعاً. ومع أنّ الحكومة وعدت بالتدخّل سريعاً، فإن الناس بدأوا يشعرون بالسخط والخوف.

ففي مجاعة عام 2002م، ألقى سكان منطقتنا اللوم على حكومة مولوزي التي كانت لا تحظى بأيّ شعبية، وعبّروا عن سخطهم حيال المسؤولين الفاسدين الذين باعوا فائض الذرة. ولكن، بدلاً من إلقاء اللوم على الطقس السيئ هذه المرّة، بدأوا يلومون السحر، ما يعني أنّهم يلومونني أنا.

كانت الخرافات لا تزال تلقى قبولاً كبيراً في شتّى أنحاء البلاد، وقد فاقم من المخاوف وقوعُ حوادث عدّة تحدثت عنها الأخبار. وكانت المجاعة السابقة قد تسبَّب في ظهور تقارير واردة من المنطقة الجنوبية، تفيد أنّ الحكومة تسلَّحت بمجموعات من مصاصي الدماء؛ لسرقة دم الناس وبيعه لمنظّمات الإغاثة الدولية. فأصاب الجنون حينها حشوداً من الناس، وتعرّض رجل مُسِنّ للرجم حتى الموت، في حين تعرّض ثلاثة كهنة كاثوليكيين لضرب مُبرِّح. وقد أنكرت الحكومة – وقتئذٍ – تورّطها مع أيٍّ من مصّاصي الدماء، لكنّ ذلك لم يقضِ على الإشاعات. قال الرئيس مولوزي حينها: «**لا تقوم الحكومات بمص دم شعوبها. فتلك بلطجة**».

تبع دراما مصاصي الدماء تلك ظهور وحش غريب في دوا يهاجم القرى. قال بعضهم :إنّه يشبه الضبع، وقال آخرون: إنّه أسد بوجه كلب. وكان ثلاثة أشخاص قد تعرّضوا للضرب حتى الموت، وفُصِلت أذرع وسيقان عن أجساد ستة عشر غيرهم. وأجبرت الهجمات الآلاف من الناس على الهرب من بيوتهم، والنوم في الغابة، مانحين المخلوق الغريب فرصة أفضل لمهاجمتهم.

سيَّرت الشرطة كثيراً من دوريات البحث في أثناء الليل، وتمكَّن بعضها – في إحدى الليالي – من محاصرة الوحش في أحد الأدغال. ولكن، وَفقاً لما نشرته الصحف، فقد كان

الوحش ينفصل إلى ثلاثة حيوانات كلّما أطلقوا عليه النـار، ويختفي بين الأحراش. بعدئذٍ، زار القرويـون السينغانغا (الساحر) الذي كان يقوم بإعداد دواء (خلطة) فاعل، ثمّ يقذف به فـوق الأشجار. وقد عُثِر على الوحش جثة هامدة على الطريق في صباح اليوم اللاحق، وكان حجمه لا يتعدّى حجم كلب. وحين حاول كبار القوم حرق الجثة لم تتمكَّن النار منها.

عاد القرويون إلى بيوتهم. ولكن ما إن شعر الجميع بالأمان مجدّداً حتى بدأ وحش آخر بالهجـوم والقتل مرّة أخرى، فعاد الآلاف إلى الغابة مجدّداً. وقد تبيَّن – في وقت لاحق– أنّ الوحش كان من فعل السحر؛ إذ كان تاجر يعيش قرب دوا قد اشترى بعض الرعد والبرق من ساحـر مُتمرِّس، لكنّه أبى الدفع لاحقاً. وقد انتقم الساحر بأن أرسل الوحش لمهاجمة عائلة التاجر. وكان جميع مَنْ تعرّضوا للقتل والتشويه من أقاربه.

تخلَّـل ظهور وحش دوا الغريب، ورود أنباء من مختلف أنحاء مالاوي عن أناس تعرّضوا لسرقة أعضائهم في أثناء الليل، ليستيقظ كثير منهم صباحاً وأغطيتهم مشبعة بالدم. وكان الرجـال الذيـن يعاقرون الخمر في الحانـات فريسة سهلة؛ فعندما كانـوا يعودون مترنِّحين إلـى بيوتهم في الظلام، كان يسحبهم مخلوق شرير – قد تكون مجموعة من الأطفال الذين يعملون لمصلحة المشعوذين – خلف شجرة لينتزع أعضاءهم بسكين. وقد تبيَّن من الكشف لاحقـاً أنّ معظـم الضحايا كانـوا أسوياء (غير شـذّاذ)، وأنّ أعضاءهم بيعـت للمشعوذين، وعبدة الشيطان، ولرجال أعمال متنفّذين.

تسبَّـب ما حـدث في إشاعة التوتر والهلع بين جموع النـاس؛ ما دفع بزعيم المعارضة، المحتـرم جون تيمبو، إلى عرض القضية على البرلمـان، حيث قال شيئاً من قبيل: **من غير المقبول أن تبيع أعضاء أناس آخرين، لا سيّما أنّك تترك أعضاءك الشخصية.**

وسرعـان مـا وصلت موجة الخرافات والخـوف تلك إلى ويمبي. فقـال أناس: إنّ بعض المشعوذين يسكنون قرب المركز التجـاري، ويستغلون الأطفال لأغراض السحر. وحدث أن أمـر المشعوذون الأطفالَ – ذات ليلة – بمهاجمة رجـل عجوز معروف بأنّه مسيحي صالح. فعندما كان العجوز نائماً، أزال الأطفال رأسه بسحرهم، ثمّ استخدموه للعب كرة القدم (كان ذلك يحدث غالباً في أثناء نومنا؛ إذ يمكن لأطفال المشعوذين أخذ رؤوسنا، ثمّ إعادتها قبل

الصبـاح مـن دون أن نشعر. إنّها مشكلة خطيرة). لم تكن مبـاراة كرة القدم تلك عادية، بل بطولـة كبيرة تقام في زامبيا بين أطفال الشيطان. وكان كأس البطولة مليئاً باللحم البشري الذي سيُتناوَل في عيد الميلاد.

كان الفريـق المالاوي يواجه نظيـره التانزاني. لكن، ما إن بـدأت المباراة وعلا صوت الجماهيـر مـن المدرّجـات حتى وقع شـيء رهيب؛ إذ انحرفـت الكرة عـن مسارها. وحين يحـدث ذلك لا يتـم إرجاع الرأس فيموت العجوز. ولمّا أُحضِـر رأس آخر لمس أحدُ الأطفال من الفريق المالاوي الكرةَ بيده داخل منطقة الجزاء، فحُسِبت ضربة جزاء لمصلحة الفريق الآخر. وانتهت المباراة بفوز الفريق التانزاني بنتيجة (0–1).

أخـذ الأطفال الآخرون يسخرون من ذلك الطفـل، ويشتمونه في أثناء العودة بالطائرة المسحورة. ثمّ صرخوا عليه قائلين: **لماذا لمست الكرة بيدك؟ لقد حرمتنا الفوز!.**

بعدئـذٍ، أخذ المشعوذون الآخـرون بضرب الطفل ضرباً مُبرِّحـاً باستخدام سحرهم. وكان ضياع الكأس المملوءة باللحم البشري أكثر ما أزعجهم. وقد صادف أن كان جدّ الطفل هـو الزعيم القبلي في قرية مجاورة. لذا، منـح المشعوذون الطفلَ خياراً، بقولهم: **عليك أن تقتل جدّك الليلة، ثمّ تُحضِر لنا لحمه، وإلّا أكلناك بدلاً منه.**

تعرّضـ هذا الطفل لضـرب مُبرِّح بالسحر، لدرجة أنّه استيقـظ في الصباح مُنهكاً، لا يقـوى على الحركة. وحيـن حضر والده لإيقاظه، اعترف الصبي بكلّ شيء؛ إذ شرح حيثيات البطولة، وكيف انحرف رأس الرجل، وأشار إلى تهديدات المشعوذين.

قال: **تعرّض أحد رجال القرية للقتل على أيدينا. والآن، يريدون منّي أن أقتل جدّي.**

غضب والداه كثيراً، ثمّ نقلا الخبر إلى الجدّ الذي كان زعيم القرية. أخبرهم الصبي باسم المشعوذ الذي وظّفه والأطفال الآخرين، فاتجه حشد من الناس إلى بيته. ضُرِب الرجل بالعصـي والهروات حتى أشـرف على الهلاك. بعد ذلك، أخبر والـدا الطفل الزعيم ويمبي (ابـن عمّ غيلبرت الـذي تولّى الزعامة) بالمسألة. فأجرى الزعيـم بعض التحريات، وأوقف ثلاثة أشخاص. وقد أُدين المشعوذون في المحكمة الرسمية، وفُرِضت عليهم غرامة كبيرة. وفي واقع الأمر، لا يحتوي دستور بلادنا – مع الأسف – على مادة تحمينا من الشعوذة. ولأنّ

مـن الصعب إثبات وقوعها، فإنّ السلطات محكومـة بإجراء التحقيقات فحسب. ويمكنها – في نهاية المطاف – إدانة مشعوذ لانتهاكه حقوق طفل. ولكن، ليس بسبب الخطف أو القتل. آمل أن يتغيّر ذلك يوماً ما.

على أيّ حال، فقد تسبَّبت تلك الأحداث في زيادة المخاوف والإيمان بالقوى الشريرة. لذا، في عام 2006م، لمّا ضرب الجفاف محصول الذرة، وزاد احتمال حدوث المجاعة، بدأ الناس يلقون باللائمة على السحر. ففي ظهيرة أحد أيام آذار، حين كانت الحقول تذبل بفعل الشمس، بدأت سحب كثيفة تتكّون في المدى.

قال بعض الناس: **انظروا، إنّ السحب تتجمّع. سيهطل المطر اليوم!**.

وقال آخرون: **هذا صحيح، لقد أُنقذنا أخيراً!**.

وكان قد مرّ علينا أسابيع عجاف من دون مطر. لذا، عُدَّ منظر الركام الرعدي الأسود الغليظ فرصة للاحتفال. ولكن، ما إن بدأ السحاب يمرّ فوقنا حتى هبَّت ريح قوية حملت معها التربة الحمراء لتلقيها في أعيننا وأفواهنا، مُرسِلة زوابع صغيرة عبر الحقول والباحات. ثمّ أخذت تلك الرياح تُبعِد السحب شيئاً فشيئاً.

ومـع اختفاء السحاب من السماء، وظهـور الشمس الحارقة، تجمّع عدد من الأشخاص عنـد بيتي، وهم يشيرون إلى الطاحونة الهوائية. كانـت شفراتها تدور بسرعة لدرجة جعلت البرج يهتز ويتمايل.

– انظروا، هذه المروحة الضخمة هي التي أبعدت السحب. إنّ آلته تمنع عنّا المطر!.

– هذه الآلة شرّ.

– إنّها ليست آلة؛ إنّها برج مسحور. هذا الولد يتعامل مع المشعوذين.

صرخـت قائـلاً: **على رسلكم!! الجفاف يجتـاح البلاد بأسرهـا، وليس قريتنا فقط. الرياح الكهربائية ليست السبب.**

قالوا: **لكنّنا رأينا ذلك بأمّ أعيننا!.**

خشيت أن يجمع هؤلاء عصبة من الناس، ثمّ يهدموا الطاحونة، أو يفعلوا ما هو أسوأ. لذا، قلّلت من ظهوري في الأسبوع اللاحق، واعتكفت داخل البيت، حتى إنّني أوقفت الشفرات في أثناء النهار كي لا تثير مزيداً من الشكوك. وفي هذه الأثناء، كان الناس في السوق التجاري يتحدثون إلى غيلبرت. فقال أحد التجار: **بوسعك إخبارنا بالحقيقة. هل هو مشعوذ حقّاً؟ هل ما يقوله عن الرياح الكهربائية صحيح؟.**

أجاب غيلبرت: **إنّه ليس مشعوذاً. تلك طاحونة هوائية، وهي آلة علمية. لقد ساعدته على بنائها.**

قال آخرون: **هل أنتَ متأكّد؟**

أجاب: **نعم. اذهبوا وانظروا بأنفسكم.**

كان كثير منهم في الواقع يعرف الغرض الذي صُنِعت لأجله الطاحونة، حتى إنّ كثيراً منهم توقّفوا عندها لشحن هواتفهم النقّالة. لكنّ توجيه أصابع الاتهام إليّ ساعدهم – حقيقةً – على التخلص من مخاوفهم المتعلقة بالمجاعة الوشيكة. ولحسن الطالع، فإنّ الحكومة قامت بعد ذلك بوقت قصير بالتدخّل، وتزويد الأسواق بمئات الأطنان من الذرة. تلا ذلك بأشهر عدّة، وصول بعض منظّمات الإغاثة، وتقديمها مزيداً من المساعدة. لم يتعرّض أحد للموت أو الجوع. لقد عملت مشئية الله على منع كارثة لا يُحمَد عقباها. لكنّ ما حدث أماط اللثام عن طريقة التفكير الرجعية التي يتبعها شعبنا، وهو ما يحبطني جدًّا.

كان السحر – مع الأسف – هو الشمّاعة التي عُلِّقت عليها مأساة أخرى في مالاوي؛ هي انتشار فيروس نقص المناعة المكتسبة ومرض الإيدز. ففي تلك الحقبة، كان ما نسبته عشرون بالمئة من المالاويين مصابين، وكان الآلاف يموتون سنويّاً. ولم يكتف المرض بالفتك بعشرات من المدرِّسين، وحرماننا من تعليم جيد؛ إذ قضى في مطلع عام 2008م على كثير من الفنانين المحليين، ولاسيما الموسيقيين منهم، ما حرم بلدنا من أحد أفضل كنوزها.

فتـك مرض الإيدز بالناس بسبب العنـاد، وعدم الوعي. ولم تحظَ قريتنا طوال سنوات بعيـادات مناسبة متخصّصة في التعامل مع فيروس نقص المناعـة المكتسبة؛ لأنّ الإصابة بـه كانت تُعَدّ وصمة عار. أضف إلى ذلك جهل الناس، وعدم تعليمهم كيفية استخدام وسيلة حمايـة مناسبة في أثناء الاتصال الجنسي. وكان جُلّ مَـنْ يصابون بالمرض، ينكرون الأمر أصـلاً. في حين لجأ آخرون إلى السحرة الذين كانـوا يعرفون أعراض المرض حالاً، لكنّهم يخدعـون المريض بقول: **أنتّ على ما يرام يـا أخي، لقد تعرّضت للسحر. من حسن حظّك أنّ لديَّ علاج.**

ادّعـى السحـرة أيضاً أنّهم قـادرون على علاج أمراضـ خطيرة أُخـرى تتطلّب عناية طبيـة، ما أدى إلى حدوث وفيات غير مبـرَّرة في بلدنا. كان أحد أشدّ تلك الأمراض فتكاً هو الإسهال، وهو من الأمراض التي زعم هؤلاء السحرة بقدرتهم على علاجها. فقد يتوجّه أحد الأشخاص – مثلاً – إلى ساحر، وهو يعاني ألماً شديداً في معدته، فيخبره الساحر بعلّته.

– أنا أعرف علّتك. أنتَ تعاني حلزونة.

– حلزونة!.

– أنا متأكّد تقريباً. هل تشعر بحركة في أمعائك؟

– أجل؛ إنّه ألم فظيع.

– إنّها حلزونة فعلاً. علينا إخراجها حالاً!.

– قم بذلك بسرعة؛ إنّها تُؤلِم كثيراً.

بعـد ذلـك، فتح الساحر كيسـه الذي يضم جـذوراً ومساحيق وعظاماً، ثـمّ أخرج منه مصباحاً (لمبة)، قائلاً: **ارفع قميصك.**

حـرَّك الساحـر اللمبة ببطء – من دون وصلها بأيّ شـيء – عند معدة المريض، كأنّه يلقي الضوء على شيء لا يراه إلّا هو.

– ها هي ذا! هل تستطيع رؤيتها تتحرّك؟

– ماذا؟

– هل يمكنك رؤيتها تحرّك قرون استشعارها؟ هذا يفسّر سبب ألمك الشديد.

– آه، نعم، أعتقد أنّ بإمكاني رؤيتها. نعم، ها هي ذا!.

مَدّ الساحر يده في الكيس مجدّداً، ثمّ أخرج رزمة من الجذور المجفّفة وغمسها بجرّة تحوي ماءً، ثمّ رشّ دواءه السحري على معدة المريض.

حالما يلامس هذا الماء الحلزونة فإنّها ستموت وتخرج.

انتظر الساحر دقائق معدودة، ثمّ قال: **هل تشعر بتحسّن؟**

أجاب المريض: **نعم، أعتقد أنّ الحلزونة قد اختفت. لا أشعر بحركتها.**

قال الساحر: **جيد. الحساب ثلاثة آلاف كواتشا.**

لطالما رافق الإصابة بمرض الإيدز وصمة عار، لدرجة أنّ معظم المصابين به لا يسعون للحصول على علاج إلّا عن طريق السينغانغا. وكثيراً ما تراهم في السوق التجاري وقد أصابهم الهُزال، وتحوّل لون شعرهم إلى الأصفر الشاحب، وبدت عيونهم مخطوفة اللون. وقد تراهم في أحايين أخرى يُحمَلون في الجزء الخلفي من شاحنة متجهة إلى مستشفى كاسونغو، ولا يعودون أبداً.

أدى غياب التثقيف الصحي أيضاً إلى تعرّض المصابين بالمرض للمضايقات والتمييز من السكان أنفسهم. ودأب الأطفال الصغار على التحرّش بالأشخاص الذين يمرّون بالطريق، وتبدو عليهم أمارات النحافة والضعف، وعلامات تدل على أنّهم واكاتشيلومبو؛ أي مصابون بفيروس.

كانوا يقولون: **انظر إلى هذا الواكاتشيلومبو بالإيدز! سيموت لا محالة! حَرِّي بك تجهيز قبرك يا سيد!.**

في ظهيرة أحد الأيام، وعندما كنّا نلعب الباوو في السوق التجاري، اقترب منّا بعض موظفي عيادة ويمبي، وبدأوا يتحدثون إلينا. قالوا: إنّهم بصدد تأسيس نادٍ خاص بالشباب؛

لتشجيع الناس على الخضوع للفحوص. ثمّ أضافوا قائلين: **لماذا لا تنضمون إلينا يا فتية كي نطهّر مجتمعنا. إنّنا في حاجة إلى مساعدتكم؛ لكي ننشر الحقيقة.**

أُسِّس نادي شباب ويمبي للخدمات الصحية في ذلك اليوم ليصبح أحد أكثر أنشطتي المفضّلة. بدأنا نجتمع كلّ يوم إثنين لنتعلّم عن أساليب الوقاية من فيروس نقص المناعة المكتسبة، وكيفية تناول الموضوع مع الآخرين. كان الصف مليئاً بالصبية أمثالي، وكان كثير منهم قد ترك المدرسة لأسباب مالية. كان جيفري وغيلبرت من الأعضاء أيضاً. وفي واقع الأمر، فقد كنت سعيداً لوجودي في بيئة صفية مجدّداً، حيث يمكنني التعلّم والاختلاط بالآخرين، فضلاً على إظهار الجميع ذكاءهم، ومشاركتهم الأصدقاء في المزاح. شغلت تلك الدروس أيضاً بالي عن المدرسة، وساعدتني على الاحتفاظ بتركيزي تماماً كما فعلت الطاحونة الهوائية وساحة الخردة. لقد بذلت أقصى جهدي في ذلك النادي.

من جانبهم، أُعجِب أطباء العيادة بحماسنا، لدرجة أنّهم طلبوا إليَّ تأليف مسرحية تحفز الناس إلى عمل الفحوص. وقد تمكّنت من إعداد نصّ رائع – كان في رأسي أكثر منه على الورق – في الأيام اللاحقة، ووسمته بِـ: ماونيكيدوي أبوسيتسا؛ أي: لا تحكم على الكتاب قبل قراءته.

عُرِضت المسرحية في السوق التجاري بعد أسبوعين من الإعداد والتدريب. وكنت قد أخذت أنا وغيلبرت نعلّق ملصقات تروِّج للعرض، حتى إنّنا طلبنا من زعيمنا الجديد – ابن عمّ غيلبرت – مخاطبة بعض راقصي الغولي وامكولو لمساعدتنا على جذب الحضور. وفي صباح يوم العرض، تجمَّع الممثّلون، ثمّ مشوا عبر السوق التجاري صارخين: **هيّا جميعاً! فلتشاهدوا عرضاً عن فيروس نقص المناعة المكتسبة! شاهدوا حركات الغولي وامكولو البهلوانية!**. وما إن جهَّزنا أنفسنا وسط السوق حتى تجمَّع حولنا زهاء خمس مئة متفرِّج . كماأغلقت كثير من المحالّ التجارية أبوابها في أثناء العرض.

تناولت المسرحية قصة زوجين يعيشان في العاصمة ليلونغوي (تقمَّص دوريهما صديقاي كريستوفر وميسي). وحدث أن قرّر الزوج إرسال زوجته إلى القرية؛ لزراعة الذرة. وكما تعرفون؛ فالحياة قد تكون شاقة جدّاً في القرى، حيث يجوع الناس هناك، إضافة إلى

أنّ العمل فيها مُضنٍ، والشمس حارّة جدّاً. خسرت الزوجة كثيراً من وزنها كونها لم تعتد على حياة الزراعة تلك. وحين عادت إلى البيت، غضب الزوج لحالها، ثمّ سألها: **لماذا أنتِ نحيفة جدّاً هكذا؟!**.

فأجابت: **الحياة صعبة جدّاً في القرية.**

قال: **أنتِ كاذبة. أعتقد أنّك كنت تعاشرين رجالاً آخرين وأُصبتي بالإيدز.**

ما لم تعرفه الزوجة هو أنّ زوجها كان في غيابها يمضي كلّ ليلة في حانات المنطقة (47)، وعاشر كثيراً من المومسات.

حاولت الزوجة إقناع زوجها ببراءتها مُنكِرة اتهاماته، لكنّ الزوج لم يُصدِّق روايتها. ثمّ قال لها: **عودي إلى القرية. إذا أردت معاشرة رجال آخرين فاذهبي. اخرجي من بيتي!.**

ولحسن الطالع، يصل صديق في تلك الأثناء، ويرقب شجارهما (هنا يأتي دوري).

قال الصديق: **انتظر لحظة يا أخي، ما المشكلة؟**

قال الزوج: **لقد أرسلت هذه المرأة إلى القرية؛ كي تزرع الذرة، وانظر كم أصبحت نحيلة. إنّها تعزو ذلك إلى العمل الشاق في الزراعة، وعدم وجود طعام في القرية. لكنّها – في رأيي – مصابة بالإيدز. لذا، لن أبقى معها بعد الآن!.**

قال الصديق: **أخي، أنتَ لا تستطيع الجزم بإصابة شخص ما بالإيدز بمجرّد النظر إليه. فقد يكون السبب هو الجوع، أو السلّ، أو غير ذلك. أمّا الطريقة الوحيدة لمعرفة السبب فهي الخضوع للفحوص في مركز الاستشارة والفحص التطوعي المحلي.**

قال الزوج: **حسناً! سنذهب إلى هناك لننهي هذه المسألة.**

اعتقد الزوج أنّ مومسات المنطقة (47) لم يُسبِّبن له الأذى؛ نظراً إلى بنيته الضخمة وصحته الجيدة. ولكن، بعد أن ظهرت نتائج الفحوص والتحاليل في المركز، أخبر الطبيب (تقمَّص غيلبرت الدور) الزوج أنه مصاب بفيروس نقص المناعة المكتسبة، وأنّ زوجته ليست كذلك.

فقال الزوج للطبيب: **أنتّ تغشّني! هذا غير ممكن!.**

ردّ الطبيب: **يستحيل أن أكذب عليك. ولكن، لا تقلق، فهذه ليست نهاية المطاف. يمكنك مواصلة حياتك بصورة طبيعية إذا اتبعت تعليمات محدّدة.**

قالت الزوجة وهي ترتجف: **لا يمكن أن أبقى معك. أنتَ محقّ يا زوجي؛ فعليَّ الرحيل.**

قال الطبيب: **لا تكوني جاهلة. يمكنكما البقاء معاً. كلّ ما عليكما فعله هو الحذر، واتباع تدابير وقائية.**

تطمئِنّ الزوجة، فتحضن زوجها، قائلة: **ما زلت أحبك وسأبقى معك حتى يفرّقنا الموت.**

في نهاية المسرحية، صاح الحضور، وهتفوا بابتهاج، وألقوا القصاصات الورقية في الهواء. وما إن نزل الممثّلون عن خشبة المسرح، حتى ختمت فرقة الغولي وامكولو العرض بطريقة حماسية. لا أجزم أنّ مسرحيتنا البسيطة قد نجحت في إقناع كثير من الناس بجدوى هذه الفحوص، وضرورة عملها في أقرب وقت ممكن، لكنّها نجحت حقّاً في تغيير المواقف. فقد أصبح كثير من الأشخاص – في يومنا هذا – يثقّفون أنفسهم بشأن المرض، ويحرصون على عمل الفحوص، ولم يعد الإيدز موضوعاً محظوراً بفضل البرامج الحكومية والمراكز الجديدة. حتى إنّ السحرة أصبحوا يرسِلون عملاءهم إلى العيادات، ويروِّجون العلم والطب على حساب سحرهم.

من جانب آخر، فقد أسهمت شهرتي في حقل الاختراع، ومشاركتي الفاعلة بالنادي، في منحي فرصاً أُخرى. فبعد وقت قصير من عرض المسرحية، طلب إليَّ أحد المدرِّسين في مدرسة ويمبي الابتدائية إنشاء نادٍ للعلوم من أجل الطلاب. وكان هذا المدرِّس قد أُعجِب بطاحونتي الهوائية، فأراد أن أبني واحدة مثلها في المدرسة.

قال: **الطلاب يَعُدّونك مثلاً أعلى لهم. ومن شأن مهاراتك العلمية تحدّي تفكيرهم من دون شكّ.**

شعرت بفرح غامر وأنا أسمع هذا الإطراء، فوافقت من فوري.

كانت الطاحونة الهوائية التي بنيتها في المدرسة صغيرة كتلك التي بنيتها أول مرّة باستخدام المذياع، وكانت شفراتها مصنوعة من دلو ذرة معدني، ومحرّك مذياع بوصفه مولِّداً. وقد ثبَّتها بعمود مصنوع من أشجار اليوكاليبتوس، ووصلت الأسلاك بمذياع ذي بطاريتين من نوع باناسونيك كنت قد حضَّرته سلفاً. قمت بذلك صبيحة أحد الأيام في أثناء الاستراحة، بينما كان الأطفال كافة يلعبون كرة القدم في الأجمة. وقد تجمَّع حولي حشد منهم في أثناء العمل، وأخذوا يراقبون. وما إن وصلت الأسلاك حتى صدحت الموسيقا في ساحة المدرسة، فصرخوا قائلين: **اهدأوا. نريد أن نسمع!**.

قال أحدهم: **لا تدفعني!**.

قال آخر: **دعني أشاهد.**

لم تتح الطاحونة الهوائية للطلاب فرصة الاستماع إلى الموسيقا والأخبار فحسب، بل مكَّنتهم أيضاً من شحن هواتف ذويهم النقّالة. كنت أحدثهم كلّ يوم إثنين عن أساسيات العلوم، وعن أهمية الاختراعات، وكيف أنّ الحبر – مثلاً – كان يُصنَع من الفحم أول الأمر. كما أجريت تجربة الكوب والخيط المذكورة في كتبي؛ لأساعدهم على فهم طريقة عمل الهاتف.

شرحت لهم أيضاً الخطوات التي اتبعتها لصنع أيّ شيء باستخدام مواد بسيطة من ساحة الخردة، وكنت آمل أنّني حفزتهم إلى الإبداع وصنع أشياء بأنفسهم. قلت لنفسي: **إذا كان بمقدوري تعليم جيراني كيفية بناء طاحونة هوائية، فمَنْ يدري ما يمكننا بناءه معاً أيضاً؟**.

قلت أيضاً: **يفتح لنا العلم آفاقاً رحبة من الاختراع والابتكار، بحيث نصنع أشياء جديدة يمكنها تحسين وضعنا. وفي حال استطعنا جميعاً اختراع شيء واستخدامه، فبإمكاننا عندئذٍ تغيير مالاوي.**

اكتشفت لاحقاً أنّ الطاحونة الهوائية في ساحة المدرسة قد ألهمت بعض الطلاب، لدرجة أنّهم عادوا إلى البيت، وصنعوا ألعاباً على هيئتها بأنفسهم.

بـدأت أتخيّل الوضع، لو أنّ تلك المـراوح الورقية كلّها أصبحت طواحين هواء حقيقية، ولو أنّ كلّ بيت ومتجر في السوق التجاري احتوى على آلة دوّارة فوق سطحه لإمساك الرياح؛ لـكان الوادي كله يشع ليلاً بالأضواء، كأنّه تحت سماء صافيـة مليئة بالنجوم. وشيئاً فشيئاً، أصبح توليد الكهرباء منارة أمل لشعبي، لا مجرّد حلم لرجل مجنون.

obeikandl.com